نصرانية الحارث بن كعب

ومخطوطة خزانة باريس ٦٧٢٣

بقلم الاديب حبيب زيات

ذكر الجاحظ في رسالته « الردّ على النصارى » ان النصرانية كانت غالبة « على ملوك العرب وقبائلها ، على لخم وغسان والحارث بن كعب بنجران وقضاعة وطيّ في قبائل كثيرة واحياء معروفة » ، (ص ١٥) . وجاء في التذكرة الحمدونية ان الحارث بن كعب ، جدّ القبيلة المشهورة ، قال لبنيه في جملة وصية له : «يا بنيّ . . . لا بقي على دين عيسى ابن مريم احد غيري وغير تميم بن مرّ واسد بن خزيمة . فموتوا على شريعتي [1] . . .

وقد نقل الاب لويس شيخو ، المأسوف عليه ، هذه الوصية في كلامه عن الحارث ؛ ومع ذلك لم يرَ ، خلافاً لعادته ، ان يجزم بنصرانيته بل رجّحها وقال : « يظهر انه مات نصرانيا . » [2]

وقد كنت قديماً وُفقت للوقوف على ثبت نصرانية الحارث في خاتمة مصحف ثمين من ذخائر باريس لا يدع بعده مساغاً للشك والتردد . ولا بد قبل الاستشهاد به من التوطئة بوصف الكتاب الوارد فيه : وهو المخطوط رقم ٦٧٢٣ الموسوم في صفحته الاخيرة بكتاب « تاريخ ملوك العرب الاولية من بني هود وغيرهم لابي سعيد عبد الملك بن (قريب) الباهلي الاصمعي » من انفس موقوفات المرحوم پونيون قنصل فرنسة في حلب ، بل من اجلّ الاسفار القيّمة والفرائد اليتيمة التي عزّت بها خزانة الامة في العاصمة . وهو لا يتجاوز سبعاً وعشرين صحيفة من الرقوق النادرة المعروفة برقّ الغزال . يكاد يكون عرضها ضعفي طولها (٤٢ × ٢٧ سنتمترا) وفي كل صفحة منها ١٧ سطرا مرقومة بخط قديم بديع في بابه ، عزيز المثال هو الى الكوفي اقرب . وكلها نقية من كل شائبة ، طاهرة الجيب والذيل من كل سواد تعليق او توقيع ، كانها حجبت عن كل نظر ، وصينت من كل مسّ بشر ، منذ نيف والف ومائة سنة ، اي منذ فرغ

١) نسخة برلين ٨٣٥٩–٨٣٦٠ ورقة ١٧ ٢) النصرانية في جزيرة العرب ص١٢٨

الإمام المشهور ابو يوسف يعقوب بن السكّيت من استنساخهـا في عاشر شوال سنة ثلاث واربعين ومائتين الى اليوم الحاضر .

ومما يزيد في قدر هذا المصحف ان جامعه الاصمعي الطائر الصيت وضعه امتثالًا لامر الخليفة المأمون . فالمؤلِّف والمؤلَّف له والراوي والمرويّ فيه كل منهم مَلِك في بابهِ . فالكتاب اذن ملكي بكل معنى . وان كان ليس وراء هذا المعنى كبير غناء للناقد والمؤرخ لانه مجموع اساطير واخبار ، بعضها اقرب الى التخرّصات والاسمار من حكاية صحيح الآثار وهذا نص المقدمة :

« بسم الله الرحمن الرحيم احمد الله دائمًا ابدًا وأصلي واسلم على نبي الهدى وعلى آلهِ وصحبهِ واعلقهم بالخلافة يدا اما بعد فقد امرت ايّد الله دولتك وايّد صولتك واطال في ظل افياء السلامة بقاك وحجب عن عين نوائب الدهر نعماك وجعلك لمتوخي سبوغ النعمة معقلًا ولآمال مؤمل الافضال موئلًا بان اجمع ما بلغني من اخبار ملوك العرب البائدة الاوليـة وبعضاً من سياستهم ونصائحهم واشعارهم وخطبهم ومسراهم في تدبير ما خوّلهم الله تعالى ووقـائعهم فرأيت استفراغ المجهود في قلة ما وصل اليّ من ذلك عذرًا ووجدان ما بهِ الكفاية عسرًا لانقطاع اخبارهم ومحو آثارهم فاتعبت ركبي بجوب القبائل مستقصياً بها رواة الاخبار وحفظة تواريخ ما مضى من الاعصار فاستقصيت كل من رافقته من النسابين وتلقيت ما روتهُ لي الشيوخ المعتبرة من الاجداد السالفين الى انْ جمعت منه هذا القدر القليل امتثالًا للامر العالي الجليل . والذي وقع عليه اجماعهم يا امير المؤمنين ان اول ملك تتوج من العرب هو قحطان بن هود النبي عليه السلام . وهود هو اول نبي مرسل بعد نوح عليه السلام ... »

وغنيّ عن البيان ما في نشر هذا الكتاب من الغرائب والفوائد . ولعل بعض المجلّات عندنا تعنى بهذه الخدمة الجلّى ، ولاسيا ان صفحاته معدودة لا تربي على ٥٢ فقط فالخطب فيها هيّن . ويظهر ان الاصل كان مُردفاً بكتاب الخيل للاصمعي ، وهو غير موجود في نسخة ابن السكّيت . وهذا نصّ ما جاء في الخاتمة :

« قال ابو يوسف يعقوب بن السكيت هذا آخر ما وصل اليّ من تاريخ ملوك العرب الاولية من بني هود وغيرهم لابي سعيد عبد الملك بن (قريب) الباهلي

الاصمعي الـذي اقطعه عليه المأمون اراضي اميرية الكرخ الغربية . وقد تم استنساخاً في عاشر شوال سنة ثلاث واربعين ومائتين. ويتلوه كتابه في الخيل.»

وقد توهم خازن دار الكتب العربية، في البرنامج الفرنسي المطبوع سنـة ١٩٢٥، ان الاراضي التي اقطعها المأمون هي بمعنى الاراضي الاميرية اليوم وترجمها كذلك (ص٣٤٧): «concéda en fiefs les terres émiriennes d'alkarkh» وهو سوء فهم واشتباه . وانما الاميرية المذكورة قرية من قرى النيل من ارض بابل ببغداد. واليهـا يُنسب الشاعر الضرير ابو النجم بـدر بن جعفر بن عثمان الاميري المتوفى سنة ٦١١[1]. وفي الصفحة المقابلة صورة الرق الاخير من رقوق الكتاب حرصنا على تمثيلها هنا نموذجاً لقلمها النادر وشاهداً بيناً بموت الحارث ابن كعب على دين النصرانية. قـال الاصمعي فيها : « وبلغني يا امير المؤمنين ان الحارث بن كعب لما حضرته الوفاة اقبل على بنيه وهو يقول :

« بنيَّ اهتدوا (في) ما اهتديت سبيلهُ ... فاكرم هذا الناس من كان هـاديا
غبيتُ زماناً لست اعلم ما الهدى ... وقد كان ذا كم ضلّةً من ضلاليـا
فلما اراد الله رشدي وذلتي ... اضاء سبيل الحق لي وهدانيا
فالفيت عني النبيَّ للرشد والهـدى ... ويمّمت نوراً الحنيفة باديا
وصرت الى عيسى ابن مريم هـادياً ... رشيـداً فـماني المسيح حواريـا
بنيَّ اتقوا الله الـذي هو ربكم ... براكم لهُ فيما برا وبرانيـا
لتعبـدهُ سبحانـهُ دون غيرهِ ... لتشـدّ في البلوى به والـدواهيا
ونؤمن بالانجيل والصحف التي ... جا بجتدي من كان للوحي تاليـا
بنيَّ صحبت النـاس ثم خبرتهم ... فـافضلهم الفيت من كان راعيـا
والفيت اشـام محلًّا ومنصباً ... رشيداً عن الفحشاء والافك ناهيـا
والفيت ادهـاهم لـدى كل امرءٍ ... مضلًّا لضُلّال العشيرة غاويا
بنيَّ احفظوا للجـار واجب حقـهِ ... ولا تسلموا النائبات المواليا
وشبّوا على فرع اليفاعة ناركم ... ليأتيها الضيف الـذي بات ساريا
ولا تبدأوا بالحرب من لم يكن لكم ... من الناس للعـدوان والظلم باديا
ومهما ازدرعتم يـا بنيَّ فانه ... سيُحصد يوماً بذر ما كان ذاكيا »

ومهما يـكن من نسبة هذه الابيات للحارث بن كعب ففيها على كل حال حكاية نصرانيته ، وصحّة موته عليها ، وهو ما توخينا اثباته هنا .

١) ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ٣٦٥ ، ونكت الهميان للصفدي ص ١٢٤